

الحجاج اللغوي في آية التعجيل من سورة يونس

د. مختار درقاوي
جامعة الشلف

- الملخص:

يتطّلع هذا البحث إلى بيان أنّ الحجاج اللغوي في ميدان البيان القرآني يحكمه ضابط رئيس تتفرع عنه جملة من الضوابط المهمة، وهو أنّ توجيه معنى الكلمة أو الجملة أو النص ينضبط وفق المقتضيات البلاغية والإجراءات اللغوية والقيود السياقية والمبادئ الاستعمالية التي من شأنها أن تعين على تحصيل الفائدة الدلالية والبلاغية.

- الكلمات المفتاحية:

الحجاج - العوامل الحجاجية - الروابط الحجاجية - السياق

- Summary:

This research seeks to show that the linguistic Argumentation in the Holy Quran is governed by Prime officer branching out with him a number of important controls, which is that sense of the word a router or wholesale or text regimented according to the context in which it would help interest semantic and rhetorical collection.

- **key words** : Argumentation – Argumentative operators - Argumentative connectors - Context

- تمهيد:

كلّفت البلاغة العربية منذ نشأتها بالقرآن الكريم كلّفا شديدا، يُتلمّس أثره مما كتبه المتقدّمون في علوم البلاغة وإعجاز القرآن: كمحمد بن يزيد الواسطي (ت306هـ)، وأبي الحسن الرّماني (ت384هـ)، وأبي سليمان الخطّابي (ت388هـ)، وأبي بكر الباقلاّني (ت403هـ)، وعبد القاهر الجرجاني (ت471هـ)، وغيرهم. إذ عمدوا إلى أمثلة من القرآن الكريم فدرسوها وأفردوها في أبواب ضمّنها شيئا من فنون الكلام العربي شعره ونثره، على أنّ القصد من وراء ذلك كلّهُ "أن القرآن كان علم البلاغة عند العرب، ثم صار بعدهم بلاغة هذا العلم"¹.

ثمّ سار المُحدّثون من بعدُ على هدي سلفهم، إذ أدركوا قيمة وضرورة العناية ببلاغة القرآن الكريم فألفوا في ذلك كتباً ورسائل كثيرة، وكانت لهم فيها طرائق متنوّعة، فهناك من بحث في أسرار الجمال والحسن والمزيّة في القرآن كلّهُ، ومنهم من عمد إلى البحث عن ذلك

في باب بعينه من أبواب بلاغته كالبحت في "الالتفات"، أو في "الفصل والوصل"، أو في "المجاز"، أو في "الحذف"، أو في "المشكلة"، أو في غير ذلك من أبواب البلاغة.

ومن المحدثين من استفاد من نتائج الدرس اللساني الحديث والمعاصر في مجالات الأسلوبية والتداولية والبلاغة الجديدة، وسعى جهده إلى تطبيق ذلك على القرآن الكريم، وإن كان دافع أصحاب هذا الاتجاه أنهم رأوا في البلاغة العربية؛ التي هي إخراج الكلام في صورة مخصوصة دون أخرى، وعدول بالكلام من صورة إلى صورة أخرى تطابق مقتضى الحال أو الاعتبار المناسب². أنهم رأوا في هذا التعريف تقاطعا مع مصطلح مهم من مصطلحات البلاغة الجديدة، يتعلّق الأمر بمصطلح "الحجاج"، الذي يعنى "بمجمال التقنيات الخطابية التي تبليغ المعنى، وتوصله إلى ذهن السامع"³.

غير أنّ التعريف الحجاجي المعهود للبلاغة العربية؛ لأن جرت كتب البلاغة على تقديمه؛ فإنّها في متونها تكتفي بالتقسيم التقليدي الذي دأبت عليه منذ السكاكي إلى: بيان ومعان وبديع، وقد يتّوج الدرس البلاغي للوجه البلاغي بخاتمة، تنوّه بقيمته البلاغية من حسن تصوير، وتأثير في النفس، الخ. أمّا درس الآليات التي يحقّق بها كل شاهد من شواهد البيان والمعاني والبديع قيمته البلاغية؛ باعتبار البلاغة تبليغ المعنى وإيصال حجة المتكلّم إلى السامع فهذا من وجهة نظر عبد الله صولة مما لا يكاد يُعثر عليه إلا عرضاً⁴.

ولعل هذا السبب الرئيس الذي دفع جمعا من التداوليين العرب المحدثين إلى الشروع في تشذيب البلاغة العربية، وتنقيحها لتلائم الدرس اللساني الحديث، بجعلها بلاغة لا تتغلّق داخل دائرة البحث عن أسرار الجمال والحسن والمزية في معاني النظم القرآني، وهو منهج جمع من القدماء كعبد القاهر الجرجاني في كتابيه "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة"، ومنهج عدد من المحدثين كمصطفى صادق الرافعي، بل بجعلها بلاغة تروم استنطاق الأبعاد الحجاجية التي من أجلها استُجلبت تلك المعاني⁵.

ويحسن في هذا الموضع التنبيه والاستدراك على من سلك هذا الطريق؛ بأن هذا الاتجاه البلاغي الجديد وإن كان في ذاته يُعدّ قيمة مضافة للدرس اللساني العربي من خلال ما يقدمه من طرحات وازنه؛ كونه لم يرض من المعرفة البلاغية بظاهر السمة دون البحث عن باطن الحجة. إلا أنّ الاتجاه الأنسب في دراسة البلاغة العربية بعامة والقرآنية بخاصة، منطق التفاضل فيه مرجعه إلى أن يجمع دارس البلاغة بين الحسنيين.

بين البحث عن أسرار جمال النظم القرآني ومكامن المزية فيه، وبين البحث في الوظيفة الحجاجية والإقناعية والتأثيرية للأنساق البلاغية، وما أكثرها في النص القرآني. وإذ قد يتعذّر الجمع والتوفيق بين المنهجين لدى بعض الباحثين، فلا ضير أن يسلك الباحث في البلاغة القرآنية الطريق الذي ارتضته نفسه، ومكنته من ارتياده بضاعته، وكفاه في ذلك زاده.

- بلاغة الحسن والمزية في القرآن:

يُدرّك هذا النوع من البلاغة بنتبع مواضع الحسن والمزية في القرآن، ببيان أنّ ذلك حاصل بأنثقف الألفاظ، وأسهلها دلالة عليها، وأقربها تناولا لها، وأشدّها تقريراً لحقائقها، كقوله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللّٰهِ تَفْتَأُ تَذَكَّرُ يُوْسُفَ حَتَّىٰ تَكُوْنَ حَرَضًا أَوْ تَكُوْنَ مِنَ الْهَالِكِيْنَ﴾⁶ أتى بأغرب ألفاظ القسم وهي التاء، فإنّها أقل استعمالا وأبعد من أفهام العامة بالنسبة إلى الباء والواو، وأتى بأغرب صيغ الأفعال التي ترفع الأسماء وتنصب الأخبار، فإنّ "تزال" أقرب إلى الأفهام من "تفتأ"، وأكثر استعمالا منها، وأتى بأغرب ألفاظ الهلاك وهو الحرص.

فاقتضى حسن الوضع في النظم أن تجاور كل لفظة بلفظة من جنسها في الغرابة توخيا لحسن الجوار ورغبة في انتلاف المعاني بالألفاظ، ولتتبادل الألفاظ في الوضع، وتتناسب في النظم. ولما أراد غير ذلك، قال: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾⁷ فأتى بجميع الألفاظ متداولة ولا غرابة فيها⁸، فكانت المزية مرة راجعة إلى تلاؤم الألفاظ بعضها ببعض، بأن يقرن الغريب بمثله والمتداول بمثله رعاية لحسن الجوار والفاصلة والمناسبة.

و مرة تكون المزية مبعثها أن الألفاظ ملائمة للمعنى المراد، فإن كان فخما كانت ألفاظه فخمة، أو جزلا فجزلة، أو غريبا فغريبة، أو متداولاً فمتداولة، وغير ذلك مما هو مبسوط في كتب البلاغة. ويلاحظ على هذا المنهج أن أنصاره يعنون بأحوال اللفظ والنظم، وبتركيب المعاني وتصريفها فيما تتجه إليه، وفي طبيعة المعنى ووجه تأديته إلى النفس، وفي وجه ارتباط المعنى بما قبله واندماجه فيما بعده، ومساقته لأشباهه ونظائره. ويعنون أيضا بتأمل الألفاظ على حروفها وحركاتها، ومناسبة بعضها لبعض، وسبب اختيار كل لفظ في موضعه، وسر العدول وبلاغته، ثم النظر في روابط الألفاظ والمعاني من الحروف والصيغ، ثم طريقة النسق والسرد في الجملة ووجه الحذف أو الإيجاز أو التكرار ونحوها⁹. ويقول مقتضب يروم هذا المنهج "تميز أقدار الألفاظ والمعاني، وتبيين ما يجري فيها من جودة الإفهام وبلاغة التعبير"¹⁰.

- بلاغة الحجاج* اللغوي في القرآن مفهوما وتطبيقاتها وضوابطها:

يُدرَك هذا النوع من أنواع البحث في البلاغة القرآنية بالنظر في البعد الإقناعي؛ لأن المتكلم يتكلم بقصد التأثير والإقناع، وتتماز اللغة في ذاتها وأقوال المخاطبين بالوظيفة التأثيرية الحجاجية. وعليه يحسن الباحث أن يتوسل بالحجاج وبآلياته، وعليه تطبيق ذلك على الكلمة والتركيب والصورة، بأن يكون القصد من وراء ذلك كله توليد المفاهيم وتوجيه الدلالة، وتعليل الأحكام، وتوفير السند المنطقي للكلام، ففي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَفُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾¹¹ تجد أن في الآية سياقاً حجاجياً يسير في اتجاه واحد.

تجسده تلك العلاقة الحجاجية القائمة بين المقدمة ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ﴾ والنتيجة الأولى ﴿لَفُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ﴾، ثم النتيجة الثانية ﴿فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ بين السياق على وجه الإجمال أن الرفق جعله الله مستمرا على عباده غير منقطع عنهم؛ لأنه أقام عليه نظام العالم، إذ أراد ثبات بنيانه وأنه لم يقدر توازي الشر في هذا العالم بالخير لطفا منه ورفقا، فالله لطيف بعباده، وفي ذلك منة عظيمة عليهم، وأن الذين يستحقون الشر لو عجل لهم ما استحقوه لبطل النظام الذي وضع عليه العالم¹²، فبين تعالى أنه لا مصلحة لهم في تعجيل إيصال الشر إليهم؛ لأنه تعالى لو أوصل ذلك العقاب إليهم لماتوا وهلكوا؛ لأن تركيبهم في الدنيا لا يحتمل ذلك ولا صلاح في إيمانهم، فربما آمنوا بعد ذلك، وربما خرج من صلبهم من كان مؤمنا، وذلك يقتضي أن لا يعاجلهم بإيصال ذلك الشر¹³.

وهكذا غدت القيمة الحجاجية بوصفها نوعا من الإلزام المرتبط بالخطاب-¹⁴ مؤشرا

موجَّها للقول على أساس أنَّ في النص إنباءً مُهمًّا؛ مفادُه أنَّ الله جعل نظام هذا العالم مبنيا على الرفق بالمخلوقات واستبقاء الأنواع إلى آجال أرادها، وجعل لهذا البقاء وسائل الإمداد بالنعم التي بها دوام الحياة، فالخيرات المُفاضة على المخلوقات في هذا العالم كثيرة، والشُرور العارضة نادرة ومعظمها مسبب عن أسباب مجعولة في نظام الكون وتصرفات أهله، ومنها ما يأتي على خلاف العادة¹⁵ عند محل آجاله التي قدَّرها الله تعالى بقوله: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾¹⁶.

ثمَّ على مستوى السَّلم الحجاجي والمقتضيات المقامية فإنَّ العوامل والروابط الحجاجية والقيود السياقية والترتيب المنطقي والمبادئ الخطابية تعين على استخلاص اللوازم التي تخدم إدراك الفائدة الإخبارية والبلاغية. فعلى مستوى العوامل الحجاجية* مثلا يمكن حصر أو تقييد بعض الإمكانيات الحجاجية للآية وفق الشكل الآتي : كانت مقدِّمة الآية في وضعها العادي تتألَّف من أربعة أطراف: تعجيل من الله في الخير وفي الشر، واستعجال من الناس كذلك، كون تقدير الكلام: لو كانت سنة الله قد مضت بأن يعجلَّ للناس الشر إذا استعجلوه، كتعجيله لهم الخير إذا استعجلوه، لعجلَّه لهؤلاء.

ولكن الكلام في وضعه البلاغي كما سيق عليه ليس فيه إلا تعجيل واحد من الله، واستعجال واحد من الناس، وفي ذلك ملمح وجيه، "فإنَّه لما حذف طرفين من الأطراف الأربعة لم يحذفهما من جنس واحد، بل أبقى من كلِّ زوجين واحدا هو نظير ما حذفه من صاحبه؛ لينبَّه بالمذكور على المحذوف، فكانت كلمة "التعجيل" منبِّهة على نظيرتها في المشبَّه به، وكلمة "الاستعجال" منبِّهة على مقابلتها في المشبَّه"¹⁷.

ثمَّ إنَّ المقابلة في التشبيه بحسب الظاهر (الوضع العادي للكلام) كانت تقتضي أن تكون بين تعجيل وتعجيل، أو بين استعجال واستعجال، ولكن جُعِلت المشابهة بين تعجيل واستعجال، "فجاء نظم الآية على إيجاز محكم بديع، فذكر في جانب الشرِّ "يُعجل" الدال على أصل جنس التعجيل ولو بأقلِّ ما يتحقَّق فيه معناه، وعبر عن تعجيل الله الخير لهم بلفظ "استعجالهم" الدال على المبالغة في التعجيل بما تفيد زيادة السين والتاء لغير الطلب"¹⁸. فليس الاستعجال في الآية إذا بمعنى طلب التعجيل؛ لأنَّ المشركين لم يسألوا تعجيل الخير ولا سألوه فحَصَلَ، بل هو بمعنى التعجَّل الكثير كما في قول سُلمى بن ربيعة ونُسب البيت إلى عمرو بن قميئة:

وَإِذَا الْعَذَارَى بِالْذُّخَانِ تَفَنَّنَتْ وَاسْتَعْجَلَتْ نَصَبَ الْقُدُورِ فَمَلَّتْ¹⁹

استعجلت: بمعنى تعجَّلت نصب القدور.

أمَّا الروابط الحجاجية فتسعى إلى الربط بين قولين، أو بين حجتين أو أكثر على الأصح، وتُسند لكل قول دورا محددا داخل الإستراتيجية الحجاجية العامة²⁰، ويمكن التمثيل للروابط في الآية بالأدوات التالية: الواو، والباء، ولو، والفاء. إنَّ مجيء حرف العطف في صدر الآية ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَفُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَتَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾. يقتضي في علم البلاغة خصوصية لعطفها على ما قبلها ومزيد اتصالها بما قبلها.

وظاهر مناسبتها لما قبلها أنه تعالى لما ذكر عَجَبَ الناس من إحياء الله إلى رجل منهم، وكان فيما أوحى إليه الإنذار والتبشير، وكانوا يستهزئون بذلك، ولا يعتقدون حلول ما أنذرهم به، فقالوا: (أمطر علينا حجارة)، وقالوا: (فأتنا بما تعدنا)، ثم استطرد من ذلك إلى وحدانيته تعالى وذكر إيجاده العالم، ثم إلى تقسيم الناس إلى مؤمن وكافر، وذكر منازل الفريقين، ثم رجع إلى ذكر المنذر به الذي طلبوا وقوعه عاجلا، ولو وقع لهلكوا، فاقتضت حكمته أن لا يعجل لهم ما طلبوه²¹.

أما الباء في قوله: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَفُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ فوظيفتها تأكيد اللصوق، كالتي في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾²² وأصله استعجالهم الخير، فاجتمعت المبالغة بالسين والتاء مع تأكيد اللصوق للدلالة على الامتنان بأن الخير لهم كثير ومكين. وفي تصدير مقدّمة الآية بكلمة "لو" الامتناعية دلالةً ضمنية على نفي التعجيل؛ أي لا يكون منه هذا التعجيل، ثم صدر النتيجة بحرف التفریع في قوله: فَذَرُ لَكَ يَنْمَ عَلَى أَنَّ لَهَذَا الْفَرْعَ أَصْلًا مِنْ جَنْسِهِ يُقَالُ فِيهِ: وَلَكِنْ شَأْنُهُ أَنْ يَذَرَ النَّاسَ، فَذَلِكَ يَذِرُ هَؤُلَاءِ؛ أَيِ إِذَا انْتَفَى التَّعْجِيلُ فَنَحْنُ نَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا يَعْمَهُونَ. وَلَمَّا كَانَتْ الْفَاءُ وَحْدَهَا لَيْسَتْ نَصًا فِي الْمَطْلُوبِ وَلَا تَكْفِي فِي إِدْرَاكِ الْقَصْدِ الْحَاجِجِي؛ لِاحْتِمَالِ أَنْ يَصْرَفَ الْمُخَاطَبُ دَلَالَتَهَا مِنَ التَّفْرِيعِ إِلَى الْعُطْفِ فَيُفْسِدُ الْمَعْنَى، عَرَّزَهَا بِقَوْتَيْنِ حَاجِجَتَيْنِ أُخْرَيَيْنِ.

تحويل صيغة الفعل في النتيجة من الماضي إلى المضارع، ثم من الغيبة إلى التكلّم؛ ليكون هذا الانقطاع اللفظي بينها وبين ما قبلها إيذانا بانقطاعها عنه معنى وإذنا بالوقوف دونها حتى لا تقع النفس لحظة ما في أدنى اضطراب أو ليس. ذلك إلى ما في هذا التحويل والالتفات والعدول من الافتتان في الأسلوب تجديداً لنشاط السامع، ومن إلقاء الرعب في القلوب بصدور نطق الوعيد والاستدراج²³. ثم أُرْدِفَ عبد الله دراز مبيّناً القيمة الحاججية للمقتضيات المقامية في إدراك بلاغة الإيجاز والعدول في الآية.

فأوضح أنّ كلمة "لو" بحسب وضعها وطبيعة معناها تتطلب عند النحاة أن يليها فعل ماضٍ. ولكن المطلوب هاهنا ليس هو نفي الماضي فحسب بل بيان أنّ هذا الفعل خلاف سنة الله التي لن تجد لها تبديلاً. فلو أدّى المعنى على هذا الوضع لطلال الكلام، ولقيل: "لو كانت سنة الله المستمرة في خلقه أن يعجل الخ" فانظر كيف اختصر الكلام في لفظ واحد بإخراج الفعل في صورة المضارع الدال على التكرار والاستمرار، واكتفى بوضع "لو" قرينة على أنّ ما بعدها ماضٍ في معناه، وهكذا أدّى الغرضين جميعاً في رفق ولين²⁴.

وكان مقتضى التطابق في سياق الشرط وجوابه أن يوضع الجواب عدلاً له، فيقال: لعجله. لكنه عدل إلى ما هو أفخم وأهول، إذ بيّن أنّه لو عجل للناس الشر لعجل لهؤلاء منه نوعاً خاصاً هم له أهل، وهو العذاب المستأصل الذي تُقضى به آجالهم. وكان مقتضى الظاهر في تقرير النتيجة أن يقال: "فندّرهم" أو "فندّر هؤلاء" ولكنه قال: ﴿فَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾. تحصيلاً لغرضين مهمين، أحدهما التنبيه على أنّ منشأ هذا الاستعجال منهم هو عدم إيمانهم بالبعث والثاني التنبيه على أن قاعدة الإمهال من الله قاعدة عامة لهم ولأمثالهم²⁵.

إلى غير ذلك من صور التفسير الحجاجي التي يمكن أن تشتمل عليها الآية، وأكثر ما تجد هذا النوع من التأويل الحجاجي في كتب الإعجاز والتفسير البياني، وقلَّ أن تجد ذلك في كتب البلاغة التي عُنيَت بالضبط المصطلحي والوظيفي وغفلت عن هذا الجانب المهم . وتجدر الإشارة في مبحث الحجاج اللغوي إلى أن هناك جملة من الضوابط* المهمة التي يفترض أن يلتزم بها الباحث في التحليل الحجاجي للقرآن الكريم، منها:

- أن ينتزَل التحليل الحجاجي للقرآن الكريم وفق ما تمليه علينا ثقافتنا الإسلامية والعربية، بحيث لا يكون التحليل الحجاجي فيه خروج عن سنن العربية ونواميسها ومسالكها في التصرف في الكلام، ولا يكون فيه خرق للتوجه الإسلامي السديد والمعتبر، أي يجب مراعاة الثوابت.

- ضرورة بيان السند المنطقي والنمط الاستدلالي في التوجيه الحجاجي لأي القرآن الكريم، فهناك نظام حكيم بديع يحمل دلالات وأسرارا ووظيفة الباحث في الحجاج اللغوي الكشف عن مكونات هذا النظام مع تقديم التفسير الذي يُجَلِّي دلالاته .

- أهمية الوعي بأن إدراك القصد الحجاجي مرتبط بفهم دلالات الألفاظ في إطار السياق، ويعدّ هذا المبدأ مرتكزا فاعلا في عملية التأويل؛ لأنّه يجعل من المعنى سهل الانقياد للفهم وللملاحظة والتحليل الموضوعي. وقد اهتمّ علماءنا العرب في التراث بالسياق وأشادوا بدوره وفاعليته، ومن أولئك نذكر علماء أصول الفقه والتفسير، فقد ركّزوا في قراءتهم للنصين القرآني والنبوي على أن يكون السياق حاضرا لتجنّب أي انزياح دلالي وأي تأويل منحرف، فاستمساكهم به دليل على حرصهم الشديد للوصول إلى المعنى المراد من الكلام، حتّى إنّه يكاد يغلب على بحثهم ومنهجهم أنّ إدراك الدلالة في كلّ موضع إنّما يتحقّق بحسب السياق .

وعلى وفق هذا تصوّر والمنحى الفكري ظهر أنّهم لا يركّزون جهدهم في تفسير النصوص على المستوى المعجمي، والنحوي، والصرفي فحسب، وإنّما يردفون إليها مبدأ السياق؛ لأنّ المستويات السابقة تكشف المعنى الظاهر، في حين يكشف السياق المعنى المخبوء والمقصود للمتكلّم، يقول ابن قيم الجوزية: "والسياق يرشد إلى تبين المجمل وتعيين المحتمل والقطع بعدم احتمال غير المراد وتخصيص العام وتقييد المطلق وتنوّع الدلالة . وهذا من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلّم فمن أهمله غلط في نظره وغالط في مناظراته، فانظر إلى قوله تعالى: "ذق إنك أنت العزيز الكريم" كيف تجد سياقه يدلّ على أنّه الدليل الحقيقير "26.

ومن قبلُ قال ابن تيمية: "اعلم أنّ من لم يحكم دلالات اللفظ، ويعلم أن ظهور المعنى من اللفظ تارة يكون بالوضع اللغوي أو العرفي أو الشرعي إما في الألفاظ المفردة، وإما في المركّبة. وتارة بما اقترن به من القرائن اللفظية التي تجعلها مجازا، و تارة بما يدلّ عليه حال المتكلّم والمخاطب والمتكلّم فيه وسياق الكلام الذي يعيّن أحد احتمالات اللفظ، أو يبيّن أن المراد به هو مجازه، إلى غير ذلك من الأسباب التي تعطي اللفظ صفة الظهور، وإلا فقد يتخبّط في هذه المواضع"27.

وفي النصين إشارات عدة؛ لعلّ من أهمّها أنّ السياق ليس مجرد حالة لفظ، وإنّما كما قال فان ديك " متوالية من أحوال اللفظ "28. كما أنّ في النصين مجموعة من القيم المعرفية الوازنة التي تنبئ عن وعي علمائنا بآليات تأويل الخطاب وبطرق اشتغال العلامات اللسانية، منها إدراك السلف لقيمة السياق في فهم النص وإنتاج الدلالة، وأي

إهمال لهاته القيمة ينتج عن ذلك مباحكات ومناكفات وانحرافات على مستوى التأويل.

- الهوامش:

- 1- الرافعي، مصطفى صادق : تاريخ آداب العرب، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، ط6، 2001، 257/2.
- 2- ينظر: السكاكي، أبو يعقوب: مفتاح العلوم، تح: عبد الحميد هنداي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1، 2000، ص256.
- 3- ينظر: صولة، عبد الله: في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات، مسكيلياني للنشر والتوزيع، تونس، ط1، 2011، ص86.
- 4- ينظر: المصدر نفسه، ص87.
- 5- ينظر صولة، عبد الله: الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، دار الفارابي، بيروت، ط2، 2007، ص610.
- 6- سورة يوسف، الآية: 85.
- 7- سورة الأنعام، الآية: 109.
- 8- السيوطي: البلاغة القرآنية المختارة من الإتقان ومعتزك الأقران: تح: السيد الجميلي، دار المعرفة، القاهرة، ط1، 1993، ص145-146.
- 9- ينظر: الرافعي، مصطفى صادق : تاريخ آداب العرب، 259/2.
- 10- شوقي، ضيف: البلاغة تطوّر وتاريخ، دار المعارف، القاهرة، ط11، ص09.
- * طابق مايبير بين البلاغة والحجاج فعد كل بلاغة حجاجا وكل حجاج بلاغة؛ فهما ينهضان على تحديد أشكال الإقناع والتأثير وإبانة المقاصد وفق مقتضيات المقام، ومن ثم تضيق مسافة الفهم، ثم قال البلاغة هي أن نفاوض حول المسافة. ينظر: سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة، بنيته وأساليبه، عالم الكتاب الحديث، الأردن، ط1، 2008، ص146.
- 11- سورة يونس، الآية: 11.
- 12- الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، ط1984، 106/11.
- 13- الرازي، فخر الدين: التفسير الكبير، دار الفكر، بيروت، ط1، 1981، 51/17.
- 14- ينظر: العزاوي، أبو بكر: اللغة والحجاج، مؤسسة الرحاب الحديثة، بيروت، ط1، 2009، ص21.
- 15- الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، 106/11. مع بعض التصرف.
- 16- سورة الرعد، الآية: 38.
- * العوامل الحجاجية لا تربط بين متغيرات حجاجية (أي بين حجة ونتيجة أو بين مجموعة حجج)، ولكنها تقوم بحصر وتقييد الإمكانيات الحجاجية التي تكون لقول ما". العزاوي أبو بكر، اللغة والحجاج، ص33. وينظر: طه، عبد الرحمن: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، ط1، 1998، الدار البيضاء، ص88.
- 17- درّاز، محمد عبد الله: النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن، دار الثقافة، الدوحة، ط1985، ص139.
- 18- الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 107/11.
- 19- عمرو بن قميئة: الديوان، تح: حسن كامل الصيّري، مطابع دار الكتاب العربي، ط1965، ص197.
- 20- ينظر: العزاوي، أبو بكر: اللغة والحجاج، ص33.
- 21- أبو حيان الأندلسي: تفسير البحر المحيط، دراسة وتحقيق وتعليق: عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1993، 133/5. مع بعض التصرف. وينظر: الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 105/11.
- 22- سورة المائدة، الآية: 06.

- 23- ينظر: درّاز، محمد عبد الله: النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن، ص 139.
- 24- المصدر نفسه، ص 140.
- 25- المصدر نفسه، ص 140.
- * في هذا الموضع إشارة إلى عدد من الضوابط التي ينبغي أن تراعى في التحليل الحجاجي للنص، أمّا عن الضوابط التي يفترض على المتخاطبين أن يلتزموا بها فيراجع: الشهري عبد الهادي بن ظافر، إستراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، لبنان، ط1، 2004، ص 465 وما بعدها.
- 26- ابن قيّم الجوزية، بدائع الفوائد، ضبط وتخرّيج أحمد عبد السلام، دار الكتب العلمية، ط1، سنة 1414هـ - 1994م، بيروت، ص 217.
- 27- ابن تيمية، التسعينية: مجموعة الفتاوى، جمعها: عبد الرحمان بن قاسم وولده محمد، تحقيق عامر الجزار و أنور الباز، 5/ 128-129. وينظر: ابن تيمية، الاستقامة، تحقيق محمد رشاد سالم، المملكة العربية السعودية: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط1، سنة 1983، 10/1. وينظر: ابن تيمية، العبودية، بيروت: المكتب الإسلامي، 1399هـ، ص 77.
- 28- فان ديك، النص و السياق استقصاء البحث في الخطاب الدلالي و التداولي، تر: عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، ط2000، المغرب، ص 256.
- قائمة المصادر والمراجع:
- القرآن الكريم.
- ابن تيمية، الاستقامة، تحقيق محمد رشاد سالم، المملكة العربية السعودية: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط1، سنة 1983.
- ابن تيمية، التسعينية: مجموعة الفتاوى، جمعها: عبد الرحمان بن قاسم وولده محمد، تحقيق عامر الجزار و أنور الباز.
- ابن تيمية، العبودية، بيروت: المكتب الإسلامي، 1399هـ.
- أبو حيان الأندلسي: تفسير البحر المحيط، دراسة وتحقيق وتعليق: عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1993.
- درّاز، محمد عبد الله: النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن، دار الثقافة، الدوحة، ط1985.
- الرازي، فخر الدين: التفسير الكبير، دار الفكر، بيروت، ط1، 1981.
- الرافعي، مصطفى صادق : تاريخ آداب العرب، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، ط6، 2001.
- سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة، بنيته وأساليبه، عالم الكتاب الحديث، الأردن، ط1، 2008.
- السكاكي، أبو يعقوب: مفتاح العلوم، تح: عبد الحميد هنداي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1، 2000.
- السيوطي: البلاغة القرآنية المختارة من الإتقان ومعتزك الأقران: تح: السيد الجميلي، دار المعرفة، القاهرة، ط1، 1993.
- الشهري عبد الهادي بن ظافر، إستراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، لبنان، ط1، 2004.
- شوقي، ضيف: البلاغة تطوّر وتاريخ، دار المعارف، القاهرة، ط11.
- صولة، عبد الله: الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، دار الفارابي، بيروت، ط2، 2007.
- صولة، عبد الله: في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات، مسكيلياني للنشر والتوزيع، تونس، ط1، 2011.
- الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، ط1984.

- طه، عبد الرحمن: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، ط1، 1998، الدار البيضاء.
- العزاوي، أبو بكر: اللغة والحجاج، مؤسسة الرحاب الحديثة، بيروت، ط1، 2009.
- عمرو بن قميئة: الديوان، تح: حسن كامل الصيّرفي، مطابع دار الكتاب العربي، ط1965.
- فان ديك، النص و السياق استقصاء البحث في الخطاب الدلالي و التداولي، تر: عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، ط2000، المغرب.
- ابن قيم الجوزية، بدائع الفوائد، ضبط وتخريج أحمد عبد السلام، دار الكتب العلمية، ط1، سنة 1414هـ - 1994م ، بيروت.